

الفصل الثاني

في

الحروب الصليبية

لا يجد المتصفح لتاريخ القرون الوسطى وما وقع فيها من الحوادث شيئاً أشنع ولا أبشع من ذلك الذي يتجلى له وقتما يمر ببصره بين سطور تروي له تاريخ الحروب الصليبية . تلك الحروب التي يرى فيها الإنسان أمم قارتين وقد تسلحوا ليقتتلوا ، والتي يجد فيها ديانتين تدافع كل منهما عن سيادتها وتنازع الأخرى امتلاك العالم بأسره ؛ وهي التي مثلت أفظع أدوار الوحشية وأكبر جنائية وقعت على الإنسانية في العصور الوسطى ؛ وهي التي أوقعت أهل آسيا الغربية في بؤس مريع مرعب يفوق حد الوصف . فما كانت هذه الحروب إلا حادثة جنون من حوادث التاريخ كما يقول بعض كتاب الأفرنج إذ قد رمت المسيحية بنفسها في أحضان المسلمين في حملة تتلوها أخرى نيفاً وثلاثة قرون

هب الغرب دفعة واحدة وقام أهله على بكرة أبيهم في وجه آسيا بعد أن تركوا ما بينهم من النزاع والشقاق وظهروا على وجه البسيطة كأنهم أمة واحدة جديرة بالفتح والغزو . تجمع الككل تحت علم الصليب الذي وحد غاياتهم وجمع شتاتهم وقرب مطامعهم فكوّن جيشهم وأوجد قوتهم ، وما



البابا أربانوس الثاني

كنت اتقراً في أفئدة القوم إلا كلمة واحدة هي القرس ولا تسمع منهم إلا ذكر الأراضى المقدسة التي بها قبر عيسى عليه السلام ، فإذا حدثتهم حدثوك بظمئهم إلى دماء المسلمين الذين استولوا في عرفهم على قبر المسيح ظلاماً وعدواناً هذه هي الحروب التي أثارها الأفرنج على المسلمين في القرون الحادي والثاني والثالث عشر ، ظاهرها استخلاص الأراضى المقدسة من أيدي المسلمين الذين كانوا - كما يزعم بطرس الناسك الداعى لها والمنادى بها - يقيدون حجاج المسيحيين بالسلاسل والأغلال ، ويمتهنون قبر المسيح عليه السلام ، ويعاملون أهالى تلك البلاد المسيحيين معاملة الذل والهوان ، قامت هذه الحروب وظهرها - كما يقول البابا أوربانوس الثانى فى خطاب الدعوة إليها ، الذي ألقاه فى مدينة كلير مونت بفرنسا سنة ١٠٩٥ م - أنها ليست لأخذ الثأر عن الأهانات التي لحقت النوع الأسمى فحسب ، بل عن تلك الأهانات التي آتاها الكفار (المسلمون) نحو الله هكذا كان ظاهرها عند العامة

أما باطنها وهو ما لم يستطع البابا نفسه إخفاءه فهو كما قال فى خطاب الدعوة الآنف الذكر (إنها ليست لاكتساب مدينة واحدة فحسب ، بل لامتلاك أقاليم آسيا بجملتها مع غناها وخزائنها التي لا تحصى ، فاتخذوا حجة البيت المقدس وخلصوا الأراضى المقدسة من أيدي المختلسين لها ، وامتلكوها أتم خالصة لكم من دون أولئك الكفار ، فهذه الأرض كما قالت التوراة «تفيض لبناً وعسلاً»

وكثيراً ما نجد بين سطور روايات المؤرخين الذين كتبوا عن هذه

الحروب مايدلنا على ذلك دلالة لامةنى للشك فيها ، فقد قال مثلا المؤرخ الانجلىزى استيفن سن فى كتابه «الصليبيون فى الشرق» (ولم تكن الحروب الصليبية سوى حملات عسكرية لتأسيس قوة لاتينية فى سوريا وفلسطين) والمعتدون من هؤلاء المؤرخين يقولون إن الحروب الصليبية كانت نتيجة روح دينية وأخرى حربية انتشرت معاً فى أرجاء أوروبا فى القرون الوسطى . وفى اعتقادى أن الروح الدينية التى يقولون عنها إنما كانت منتشرة إذ ذاك لم تكن كذلك ، ولم يكن يشعر بها ويقدمها سوى القساوسة والكهنة وغيرهم من الطبقة الروحانية ، بدليل ما يقوله استيفن سن المتقدم الذكر من أن عامة القوم كانت تعيش عيشة بعيدة عن الدين بما كانوا منهمكين فيه من القتال والنزاع والسلب والنهب

قام البابا يحرض القوم بماله من المنزلة فى النفوس ، والمكائنة فى القلوب ، مدفوعاً بعامل يخفيه ، فألبسه لباس الدين ، لعله أن الدعوة الدينية أشد تأثيراً ، وأقوى على النفوس من غيرها ، فهى العقيدة وهى الشعور الوجدانى الموروث ، والأنسان أحرص ما يكون على تراث آباءه وأجداده

أخذ البابا من أساليب الخداع ما جادت به قريحته ، وحر كته إليه مطامعه ، فأعلن أن كل من اشترك فى هذه الحروب ، غفرت له ذنوبه ودخل فى إجماعة الكنيسة ، وأن ماله وأهله وذويه جميعاً فى حماية الكنيسة وأن متاعب الحرب وأخطارها ليست إلا تكفيراً عن الذنوب أصنف إلى هذا ما قاله من الكلام المثير المبهج للعواطف كقوله (أيها الجند

المسيحيون ، لقد كنتم تبحثون من غير جدوى وراء إثارة نيران الحروب والفتن فيما بينكم ، أفيقوا فقد وجدتم اليوم داعياً حقيقياً إليها ، لقد كنتم سبب انزعاج مواطنيكم وقتاً ما ، فاذهبوا الآن وازعجوا البرابرة ، اذهبوا وخلصوا البلاد المقدسة من أيدي الكفار ، أيها الجند ، أنتم الذين كنوا اساع الشرور والفتن ، ألا هبوا اليوم وقدموا قواكم وسواعدم ثمناً لإيمانكم ، وتساحوا بسلاح الدين والتقوي ، فانكم بذلك تنالون الجزاء والنعيم الدائم ، إنكم إن انتصرتم على عدوكم كانت لكم ممالك الشرق ميراثاً ، وإن أنتم خذتم فستموتون حيث مات عيسى عليه السلام ، فلا ينساكم الرب من رحمته ، فيحلكم محل أوليائه ؛ هذا هو الوقت الذي تبهنون فيه على أن فيكم قوة وعزمًا وبطشًا وشجاعة ، هذا أو ان تظهرون فيه شجاعتكم التي طالما أظهرتموها وقت السلم ، وإذا كان من المحتم أن تثاروا لأنفسكم فاذهبوا واغسلوا أيديكم بدماء أولئك الكفار وهكذا حتى يقول بعد أن رأيهم سيكون متأثرين بخداعه ومكره (الحمد لله ، لقد أصبح جند النار جنداً لله ، يا قوم ! متى دعاكم عيسى إلى مساعدته فلا تتواروا في بيوتكم متقاعدين ، ولا تفكروا في شيء إلا فيما وقع فيه إخوانكم المسيحيون من الذل والهوان والمسكنة ، ولا تستمعوا إلا إلى القدس وزفراته ، واذكروا جيداً ما قاله لكم المسيح « ليس مني من يحب أباه وأمه أكثر من محبته ياي ، أما الذي يترك بيته ووطنه وأمه وأباه وزوجه وأولاده وممتلكاته ومقتنياته حباً فيّ ومن أجلّي فسيخلد في النعيم ، وسيجزيه الله الجزاء الا وفي » اه بتصرف قليل عما ورد في كتاب « تاريخ

المؤرخين « المجلد الثامن

بمثل هذا قام البابا وأعوانه يدعون قومهم ويشيرون عواطفهم ذا كرين لهم الكثير من الأباطيل والمفتريات على ما يأتية المسامون في الشرق ويتهمونهم بما شاءت أهواؤهم، ولو علم سكان أوروبا إذ ذاك ما المسامون عليه من إطلاق حرية الشعوب المغلوبة في إقامة شعائرهم الدينية وعاداتهم، ولو أنهم أدركوا ما أوجبه الدين الإسلامي على أمرائه وحكامه من تأمين الذي على ماله ومتاعه وأهله ونفسه وعرضه، ولو سمعوا ما كن يقوله النبي صلى الله عليه وسلم (من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا خصمه يوم القيامة) لو أدركوا هذا لعلموا أن هذه النيران التي كانت تندلع من أفواه الداعين إلى الحرب إنما كانت تذكيها مطامع شخصية، لكنهم معذورون، فقد كانت أوروبا في هذا الأوان تموج في بحر الجهالة والعمى قد انتابتها الفتن ولحقت بها المحن من كل نوع، فانتشرت اللصوصية وعمت الجماعات وثارت الفتن حتى أصبحت البلاد والعباد في خطر ليس وراءه خطر

اختلاف المؤرخون في الدواعي التي دعت إلى تلك الحروب فمنهم من يقول إن الدولة الساجوقية التي مر ذكرها كانت قد امتاكت آسيا الصغرى وأسست سلطنة في بلاد الروم التي كانت تابعة للأغريق وهموا بالاستيلاء على القسطنطينية نفسها، فقام أمبراطورها يستغيث باهل أوروبا ويطلب منهم المعونة على رد غارة المساميز، وكاتب البابا في رومة باعتبارها أكبر رأس في أوروبا ووعدته جزاء مساعدته أن يضم الكنيسة الشرقية التي مقرها القسطنطينية إلى الكنيسة الغربية في رومة فتصبح أوروبا كلها خاضعة لكنيسة واحدة



بطرس الناسك

هي كنيسة رومة أو بمباراة أخرى خاصة للبابا . على أن بعضهم يضيف إلى هذا ما كان من ميل بابا رومة وقت هذه الدعوة إلى الظهور على بعض الملوك والزعماء الذين كادوا يخرجون عن طاعته، فأدلى بالأمر إلى بطرس الناسك ، وكان فصيحاً لسنًا ، فصدمع بالأمر وقام به خير قيام ؛ والقارىء لتاريخ هذا الرجل يدهش كثيراً للظروف التي أحاطت به ويعلم أنه رسول البابا بلا نزاع

ويقول باشيوليه وزميله في قاموسيهما الجغرافي التاريخي تحت كلمة « الحروب الصليبية » (أما أسبابها فكانت عند عامة شعوب أوروبا الاعتقاد الديني والمزايا الروحانية التي كانت تنعم بها الكنيسة في رومة ، أما عند الأمراء والزعماء فكانت حب الرحلات غير العادية الخطيرة والأمل العظيم في الاستيلاء على ممتلكات واسعة في الشرق)

وغير هؤلاء يقول « ولما تزايد عدد الحجاج الأفرنج إلى القدس ، وسقطت الشام وفلسطين وآسيا الصغرى في أيدي الأتراك السلاجقة ، بدأ السلام المسائد بين المسلمين والمسيحيين ينهار ركنه وتهوى دعائمها ، فاضطربت العلاقات التجارية بين آسيا وأوروبا ، وخافت المدن التجارية الأوربية الواقعة على البحر الأبيض المتوسط مثل البندقية وجنوة وبيزة وغيرها من استيلاء السلاجقة على الأسواق الشرقية ، خشية أن تغلقها في وجهها وحينئذ يكون فقرها وخرابها »

وعندى أن هذا من أقوى ما شجع القوم على الرحيل لحرب المسلمين أغفله جمهور المؤرخين وهو سبب معقول مقبول وله نظائر شتى في أسباب

الحروب الأوروبية الأخيرة، بل إن ذلك قد دعي الفواطم وهم مسامون إلى محاربة السلاجقة المسلمين غيرة على مصالحهم في البلاد التي كانت لمصر واستولى عليها السلاجقة بالشام

وهنا لا أجد بداً للتنبيه إلى ما قاله جماعة من المؤرخين من أن الفواطم في مصر عند ما رأوا أن السلاجقة قد قويت شوكتهم واستفحل أمرهم في آسيا واستولوا على القدس وامتدت أيديهم إلى الممتلكات المصرية خافوا شرهم فراسلوا الأفرنج في رومة يجيبون إليهم الاستيلاء على بيت المقدس، ولو صح أنهم راسلوا أهل أوروبا فلا يكون ذلك مع أهل أوروبا الغربية، إذ لم تكن للفواطم بهم علاقة، وإنما يصح أنهم كاتبوا إمبراطور القسطنطينية لما كان بين المسلمين وبين بلادهم من العلاقات قديماً، ولأنه مותר من السلاجقة، فيصح للفواطم الاستعانة به ولكن بالرغم من هذا كله فاني أرى أن شيئاً من ذلك لم يحصل، إذ كيف يتفق أن الفواطم يرسلون الأفرنج لمحاربة المسلمين وهم بنفسهم قد قاموا بمحاربة الأفرنج ودافعوا عن عسقلان لآخر لحظة من قوتهم الحربية

وعلى كل حال فقد تجمعت ظروف مختلفة وميول متباينة ساعد بعضها بعضاً فكانت أسباب تلك الحروب الطاحنة التي عادت على العالم الأوروبي بنصيب كبير من حضارته الحديثة

أما نجاح الأفرنج في حملاتهم فقد نجم أولاً عما تصادفه كل دعوة جديدة من النشاط، ولما قام بين أعضاء البيت السلجوقي من النزاع بعد موت السلطان ملكشاه العظيم . جاء الأفرنج إلى الشام وأهله متفككون

متنافسون، بينما الرؤساء الروحانيون في أوروبا يعيشون في القوم المهم لأرسال المؤن والأمدادات، فكان تيار هذه الحملات لا ينقطع، ولولا هذا لما استطاعوا أن يثبتوا لحظة واحدة هناك، فلما ملت أوروبا وتعبت من كثرة ما ترسله من المساعدات لمملكة كالبجر - كما يقول صاحب كتاب القدس - تبتلع كل ما يصل إليها ولا ترسل شيئاً، بدأ نجم هذه الحملات يأفل وسعدها يهوى وظلها يتقلص، وعجل لها الوهن أسباب أخرى نحن ذا كروها هنا على سبيل الأيجاز فنقول:

أسس الأفرنج في أول أمرهم في آسيا أربع ولايات هي الرها وانطاكية وطرابلس والقدس، والناظر إلى الخريطة يرى أن الأوليتين واقعتان في الشمال تتاخمان بلاد المسامين الذين كانت لهم القوة والسلطان في تلك الجهات، فلو نظر الأفرنج بعين الأخلص والتضامن في العمل، لأقاموا الحصون والمعقل حول هاتين الولايتين، ولكنهم لما كانت الأثرة رائدهم والمنفعة الشخصية قائدهم، اهتم كل بما في يده غير ناظر إلى غيره وما يحيط به من الأخطار، ولما كان بيت المقدس هو قبلة الجميع ومحط أطماعهم لأنه المكان المقدس؛ وكان لمن استولى عليه من المكانة ما ليس لغيره، توجهت إليه أنظار المسامين والأفرنج على السواء فأهمل هؤلاء الأفرنج أمر غيره من الولايات التي في أيديهم فلم يحصنوها، وهاجمهم المسامون من الشمال فلم يجدوا صعوبة ما في الاستيلاء على هذه الولايات. قام عماد الدين زنكي والد محمود نور الدين زنكي واستولى على الرها سنة ١١٤٤ م وبذلك قضى على آمال الأفرنج بالشام وفلسطين

فلو لم يطمع كل واحد من قواد الأفرنج في تأسيس ملك عظيم له وحده في سوريا، لما عادت أوروبا بأجمعها خائبة أمام طائفة من المسلمين وإليك ما قاله استيفن سن « أما المسائل الحربية فكان ينظر إليها كل قائد بما يراه صالحاً لنفسه ، فإذا اجتمع القواد للبحث ، رأيت الغيرة بادية على وجوههم والشكوك والظنون السوء ناشرة أجنحتها على مجتمعهم ، فتمتد يد التفريق إلى نثر عقدهم فتبعثره أيدي سبا »

لم يكن امتلاك الأفرنج للشام عاماً كل جهاته بل ظلت البلاد الداخلية ذات المركز الهام في سوريا في أيدي الأشراف المسلمين كحلب ودمشق وغيرها، وكان بقاءها مع المسلمين عاملاً من أكبر العوامل في اندحار الأفرنج وخذلانهم، فكانت مبعث قوة المسلمين ومصدر وحدتهم بعد تفككها، فظهر عماد الدين ومحمود نور الدين زنكي وصلاح الدين يوسف بن أيوب وقد بلغ المسلمون قبل وفاته حظاً عظيماً من المنعة والقوة وأصبحوا أصحاب السطان في سوريا وفلسطين، واستكان الأفرنج وضعفوا حتى ليخيل إلى الأتسان أن علة مهلكة قد قضت على ساطانهم

استولى عماد الدين زنكي على الرها سنة ١١٤٤م كما تقدم ثم جاء ولده محمود نور الدين فضم حلب ودمشق إلى ملكه ولم تكونا في أيدي الأفرنج، فظهرت بهما قوته، فعلت كلمته عليهم ورجحت كفة المسلمين بعد أن دانت له مصر على يد صلاح الدين وعمه أسد الدين شيركوه، فاضطرب الأفرنج وأخذ نور الدين يستولى على ما لهم في الشمال، حتى تقاص ظلمهم من معظم جهات أنطاكية وطرابلس ثم مات هذا الرجل العظيم وخلفه صلاح الدين

واستولى بعزمه وقوته على بيت المقدس، فهوت قوة الأفرنج وأخذت البلاد تخرج من أيديهم، ولم يبق إلا ما تركه لهم صلاح الدين في عهده مع رتشارد قلب الأسد سنة ١١٩٣م

ثم جاء خلفاء صلاح الدين الأفرنج تتأجج في صدورهم نار البغضاء، يريدون استرداد ما فقدوا فقصرت عنه أيديهم حتى انتهى أمرهم بالزوال حين قام الملك الأشرف بن السلطان قلون وضربهم الضربة الأخيرة التي قضت على آمالهم فسلمت البلاد كلها إليه سنة ١٢٩١م

على أنه يجب ألا يغيب عن البال حال الجيوش التي تكونت منها تلك الحملات فكثيراً ما اشتملت على أناس من أخط القوم، وهم أولئك المجرمون السفاكون الذين لوثوا بقية المحاربين بشرهم ورجسهم وسفالة أخلاقهم. وقد نسب سان برنار عدم نجاحهم في إحدى الحملات كما يقول لوبون في كتابه (الحضارة العربية) عند الكلام على الحروب الصليبية إلى انغماسهم في الفسق والفجور

أصنف إلى ذلك ما كان من تسلط النساء وتأثيرهن فاليهن يرجع حظ غير قليل من فشل الصليبيين

فاذا لم ندس أن الأفرنج قد نقلوا في آسيا ما ألفوا من النظام الأقطاعي في أوروبا، لم ندهش لما نشأ عن ذلك من إفقار البلاد وتخريبها كما يقول لوبون المذكور بعد أن كانت غنية في أيام حكامها النابغين من العرب نشأ عن هذا النظام حاجة القوم إلى المال وحرصهم على تحصييله وليس حال الملك امريك أو أموري بخاف على من علم أمره في غزوته

الثالثة لمصر مما سيجيء ذكره

على أنه بقي سبب آخر هو كثرة فتك هؤلاء الأفرنج بالمغلوبين عند ابتداء أمرهم ، فجعلهم ذلك موضع سخط الناس حتى المسيحيين منهم ، ولو أنهم أنصفوا فأبقوا على المغلوبين وعاملوهم بالحسنى ، لآخذوا منهم درعا تقيهم شر المغير عليهم ، ولما توقفت حياتهم على مدد أوروبا التي لم يكن بد من أن تنتهي إلى السآمة من امدادهم وإعاتهم يوماً ما

يفغل جمهور المؤرخين عن ذكر أسباب انحطاطهم ، ويعلمون ذلك بانتصار صلاح الدين لأنه جمع شتات المسلمين ووحدهم . ولا شك في أن وحدة المسلمين قد كان لها أثر عظيم في انتصارهم ، غير أن من الحق أيضاً أن لا يغفل ما جاء في كتاب تاريخ المؤرخين عمل التيمس حين يقول « ولولا تحيز المؤرخين والمؤلفين وامتناعهم عن الخط من قدر ما كان يأتيه المحاربون ، لوجب عليهم أن يقولوا إن رذائل المسيحيين في الأراضى المقدسة لها أثر كبير في ضياع مملكتهم في فلسطين إن لم يكن السبب بعينه »

ومهما يكن من أمر هذه الحرب وما سبقها من العلل وصحبها من الظروف ، فقد أدت خدمات جليلة لأوروبا رغمًا عما أهلكته من أنفس أهلها وأفنت من أموالهم وأضاعت من سلطان بعضهم ونشرت من روح التمعصب الممقوت وأفقدت الديانة المسيحية - كما جاء في كتاب تاريخ المؤرخين السالف الذكر - ما فيها من حب الأحسان والأعتدال والرفق

ومع أن أوروبا لم تنل ما كانت تتمنى من الأراضى المقدسة ، ومع أنها خضعت لما أنشأته هذه الحرب من ذلك النظام المرذول ، نظام غفران الذنوب الذى اتخذه بعض القوم تجارة وبالغوا فيه حتى قام شمال أوروبا يدعو إلى الإصلاح الدينى ، مع هذا كله فقد ملأت هذه الحرب الطاحنة قلوب الأفرنج عبرة وعظة ، فقد سلكوا مسلك العقل والحكمة فتركوا ما كان بينهم من نزاع وشقاق وحولوا وجههم إلى النظر في شؤونهم الاجتماعية العامة ، فأخذوا فى نشر العلوم والمعارف وأخذت الأنظمة السياسية شكلا غير شكها الا اول ، والحالة الاجتماعية تتغير وتتبدل ، والخرافات التى كانت تحكم على العقول انتهى أمرها وذهب تأثيرها ، فأنحلت العقول من أسرها ، ونظرت إلى ما حولها فرأت أن سلطة البابا وأهل الدين قد إمتدت إلى ما لا يطاق ، فتحركت الهمم للإصلاح الدينى . ويقول باشوليه وزميله فى قاموسيهما الجغرافى « وقد عُوِضت الخسارة المادية التى أصابت المسيحيين بانتصارات باهرة فى النظام السياسى والأدبى » ثم يقول « وكذلك القرن الذى حمل الصليب نال حرته الشخصية ، وانتشرت الملاحاة وترقت فزادت قوة ييزة وحنوة والبنديقية التى أكثرت من مرا كزها التجارية فى البحر الأبيض المتوسط ، وإستفادت الصناعة والزراعة أيضاً بما عرفه أهل أوروبا من وسائل جديدة ومحصلات كانت مجهولة لديهم كالحرير وصناعاته والصباعة والزعفران وشغل المينا وشغل المعادن والأحجار الكريمة ، وانتقلت زراعة قصب السكر إلى صقلية ، وتمكن السياح من دخول بعض مجاهل آسيا »

مما مر يمكن القول بأن أهل الشرق هم الذين أفاضوا على أهل الغرب من حضارتهم ينبوعا اعترفوا منه بعض حضارتهم الحالية وأقطعوهم من نبات أفكارهم ما بعث حياتهم العقلية على الرقي

وقد قال صاحب المعالي إسماعيل صدقي باشا وزير الأوقاف سابقاً ووزير المالية حالا ضمن خطاب ألقى في حفلة من الحفلات « هذا وقد أصاب ديار أوروبا من ناحية الشرق وابل من غيث الحضارة العربية بما حمله أهلها من ديار الشرق أيام الحروب الصليبية فكأنه أصاب أرضا نباتها أذكي واجدى فأينعت ثمارها واخضلت ربوعها في طرفة عين »

ولا يغيب عن البال أن حضارة أوروبا الحالية كانت قد سبقتها حضارة بغداد وقرطبة، فاستفاد الناس الذين كانوا يميلون للعلم، وتعلموا كثيرا مما جعلوه بذورا للعلم والمعارف في بلادهم، فإن زعم المؤرخون أن سقوط القسطنطينية في يد الأتراك العثمانيين هو الذي سبب إحياء العلوم والمعارف في أوروبا وأظهر النهضة الأدبية، فلا يصح إلا أن نعترف بأن بذور هذه النهضة لم يبذرهما سوي اختلاط أوروبا بأهل الشرق أيام الحروب الصليبية

وعلى كل حال فقد فتحت هذه الحروب فتحاً جديداً في أوروبا ما كان القوم يحامون به، فقربت بين الشريف والوضيع وأضعفت من الأوهام الناشئة عن الدين حتى اعتقد بعض الناس أن صلاح الدين يصح أن يكون من شجعانهم وفرسانهم ونبلائهم

هذه هي الحروب الصليبية وتلك هي أسبابها ودواعيها، وهما هي

نتائجها وثمارها . ولما كان صلاح الدين هو بطلها وعنه أخذ الناس أمثلة في
الهمة والأمانة وابن القلب والرحمة والشفقة، مع شدة بأس وإقدام وشجاعة
وقوة في الحق، ووجهت همتي نحو ذكر حياته وتاريخه، حتى يعرف قومي
بطلا من أبطال العالم لا أقول الشرق فحسب بل العالم بأسره، ووها أنا ذا أذكر
تفصيل حاله وما آل إليه أمره مبتدئاً بذكر قومه وعشيرته لما في ذلك من
توضيح أحواله وتفسير أعماله التي قام بها

قومه وعشيرته

الأكراد هم جيل من الآريين ليسوا بعرب ولا ترك وليس ببعيد
أن يكونوا خليطاً من فرس وعرب
عاش الأكراد في زمنهم الأول عيشة البدويين وسكان الجبال،
فأقاموا زمناً طويلاً في الجهات الجبلية التي بين بلاد الفرس وآسيا الصغرى؛
وكانوا يشبهون عرب الجاهلية في عصبيتهم القومية وفي ميلهم إلى السلب
والنهب، كما أنهم يماثلونهم في كرمهم وإقراءهم الضيف والمحافظة على
الشرف والشجاعة والأقدام، فكانوا أهل فروسية يحبون الحرب والقتال
والغزو، يشارك رجالهم نساءهم في هذه الصفات، لذلك اشتهرت من
بينهم نساء كثيرات قن بقيادة الجنود وشن الغارات . ولما ظهرت
فيهم هذه التوة وعرفت عنهم هذه المقدرة الحربية كان كثيراً ما تستخدمهم
الأمراء المجاورون لبلادهم للعمل في جيوشهم، فكانوا قوة لمن إعتز بهم
وعوناً لمن طاب معونتهم، وكانوا مع هذا بعيدين عن الحضارة ومظاهرها

والتأثير بها ، شديدي المراس لا يمكن الأجنبي أن يحكمهم أو يتساط عليهم ، بل كانت أشرفهم هم حكمهم ، كل قبيلة من قبائلهم المتعددة منفردة بحكومة ، غير أن الجميع يجمعهم لسان ودين . ولما كانوا أهل بدواة عشقوا الحرية وكفوا بالاستقلال

أما لغتهم فالأيرانية بلهجة قريبة جداً من اللغة الفارسية ، ويقول ملطبرون في كتابه (الجغرافيا العمومية) الذي ترجمه رفاعه بك « والأكراد يتكلمون اللغة الفارسية مشوبة بألفاظ عربية وخليدية أى عراقية ، ويكتبون بالفارسي ، وفي كل قرية ملىً يعنى عالماً خبيراً بلغة الفرس » وهم والا رمن من أصل واحد ، غير أن أولئك أساموا ، وبقى هؤلاء على دينهم الأول ، ولذلك دامت بينهم العداوة والبغضاء ، ويقول ملطبرون في كتابه المتقدم « وهم الأكراد - مسلمون وهم عقائد زائغة يظهر أنها بقايا عندهم من دين المجوس ؛ وينقل العثمانيون عنهم أنهم يعظمون الشيطان وهو إله الشر عند قدماء الفرس المسمى عندهم أهريمان » ويذكر بعض المؤرخين أن الأكراد لما كانوا تحت سيطرة الفرس ، كانوا على الدوام يظهرن العصيان ويقومون بالثورات ويخالفون ملك الفرس كثيراً ، ولما خضعوا للعثمانيين لم يكفوا عن مخالفة أوامرهم فلم يكثرثوا بفرماناتهم ، لذلك لم تتغير دولتهم عما كانت عليه في زمنهم القديم اللهم إلا تغييراً بسيطاً والخراج عندهم التزام تقوم كل قرية بدفع الأتاوة لشيخها وهو يدفعها لا مير القبيلة ، وكثيراً ما تشور القبائل الصغيرة على أمراءها ويخرجون عليهم فيعزلونهم إذا استطاعوا ، فكانت هذه الفتن وتلك الثورات سبباً

في انفصال عشائر عدة اتخذت حياة الرحالة ومعيشة التنقل كالعرب
والتركان ، فصاروا رعاة ماشية وقطاع طرق

والكردي يخالف التركماني في كثير من العادات، فالأكراد يأخذون
مهر بناتهم، أما التركمان فيدفعون مهرهن لأزواجهن، والتركماني لا يكثر
بشرف أصله ولا بنباهة نسبه وحسبه ، أما الكردي فإنه يفاخر
بهذا كله

والأكراد بيض البشرة معتدلو القوام ؛ وقد اختلف المؤرخون في
تسميتهم ، فيقول ملطرون في كتابه المذكور « وفي جبلي زغروس
ونيفاطس اللذين يحدان ميديا من جهة الغرب عدة أمم متوحشة أشهرها
أمة الكرطية ، والظاهر أنهم هم الامم الذين سماهم زنفون كردوخية ،
وسماهم بلوترخوس غردوينية ، وسماهم إمينرقلين كردوينية ، وسماهم
المتأخرون من الجغرافيين كرداً أو أكراداً »

وقد جاء في كتاب طبقات الأمم لجورجي زيدان وهم -
الأكراد - أمة قديمة كانت تسمى في التاريخ القديم كردوخي « على أنه
يظهر من تقارب هذه الأسماء أنه لم يكن هناك اختلاف في تسميتهم ،
غير أن لهجات لغة الأكراد كانت تسمى على المؤرخين أسماء متباينة الشكل
فاذا مادقق الناظر فيها قليلاً وجدها جميعها ترجع إلى أصل واحد وكلمة
واحدة يختلف النطق بها باختلاف لهجة القائل لها كما هو الحال في
اللهجات المصرية

كذلك تعددت الروايات في أصولهم فمن قائل إن لفظة كرد معناها

ذئب ثم أطلق الاسم على السكان، لأن بلادهم كانت مأوى للذئاب. على أن أكثر العلماء متفقون على أن الأكراد من نسل آري كانوا يسكنون قديماً جبال حوردبان التي تفصل بين أرمينيا وميديا، ثم إنتشروا بعد ذلك فيما بين نهري الدجلة والفرات ثم أطلقوا على الجهات التي نزلوها اسم كردستان أي بلاد الكرد، وهم أناس وحشيون يسكنون الحرج (الأحراش) ويعيشون من قطعان الحيوان، ولسكنهم بعد ذلك تاجروا مع الأتراك المتوحشين فاقتبسوا منهم وحشيتهم وفضاعتهم وقساوتهم وأخلاقهم الحربية ونذكر من باب الفكاهة ما قاله أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الكاتب الدينوري في كتاب المعارف ص ٢٠٨ المطبوع بمصر سنة ١٣٠٠هـ «تذكر العجم أن الأكراد فضل طعم (بيوراسف) وذلك انه كان يأمر أن يذبح له كل يوم إنسان ويتخذ طعاماً من لحمه وكان له وزير يقال له (إرمائل) فكان يذبح واحداً ويستحيي واحداً ويبعث به إلى جبال فارس فتوالدوا في الجبال وكثروا

ورغم ما كان عليه الأكراد من البداوة في معاشهم وأحوالهم، فقد كانت لهم بعض حرف تناسب حالهم هذه، فكان لهم ولع خاص بتربية المعز المسمى أنقرة ذي الشعر الطويل، وكانوا ينسجون المنسوجات الصوفية والقطنية والحريرية، كما أنهم كانوا يعرفون قليلاً من صناعة الجلد والسلاح المستعمل في بلادهم؛ كل هذه الحرف والصناعات توافق ما كانوا عليه من البداوة، وقد أوجدتها الضرورة فيهم على مثال تلك التي توجد بين السودانيين مثلاً وسكان أواسط افريقية

من هذه الأمة ومن أكبر القبائل فيها وأشرفها ، ظهرت أسرة صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب بن شادى أو شاذي - كما يقول بعض المؤرخين - ابن مروان ويدعى بعضهم أن مروان هذا هو مروان الخليفة الأموي ، وذلك حتى يوفق هذا البعض بين صلاح الدين وبين عظمته التي عرفت عنه بعد ؛ وما أدري لم يلتزم هذا التعليل الذي لا معنى له إذ ليس من المحتم أن تكون العظمة وراثية ، فلا تنتقل من أسرة إلى أخرى أو من فرد إلى آخر ، وهذه حوادث التاريخ توضح لنا بأجلى بيان أن أكثر النابهين وأعظم الفاتحين إنما كانوا من أسر خمل ذكرها لولا ظهورهم وضاعت أصولها لولا شهرتهم ، لهذا يجدر بنا أن نسير مع هؤلاء الذين يدعون أن مروان هذا هو الخليفة الأموي

يقول ابن خلدون في الجزء الخامس من تاريخه ص ٢٧٨ عند الكلام على الدولة الأيوبية مانصه « وجدهم هو أيوب بن شادى بن مروان بن على بن عشرة بن الحسن بن على بن احمد بن على بن عبد العزيز بن هدية بن الحصين بن الحرث بن سنان بن عمر بن مرة بن عوف الحميري الدوسي هكذا نسبه بعض المؤرخين لدولتهم »

على أن في إجماع المؤرخين متقدمهم ومتأخرهم على عدم ذكر جد لهذه الأسرة بعد مروان ما يدل على أن ما ينسبه بعض المؤرخين هذا هو أيضاً من قبيل محاولة إثبات ما لهذه الأسرة من الشرف وبعد الصيت من القدم ، إذ في ذكر سلسلة النسب ما يبرهن على أن المؤرخين متبعون سيرة أفرادها وأن الزمن نفسه حافظ لتلك السير . والقريب إلى التصديق ما

رواه استتاني ليني پول اذ يقول « ولقد كانت دوين تسير نحو الانحطاط عند ما كان جد صلاح الدين المسمى شادي بن مروان قد آل إليه تراث مركز أسرته من الشرف والاحترام وسمو المنزلة » ثم خشى المؤرخ أن قد يتبادر إلى ذهن القارئ أن شادي هذا كان له من الملك والسلطان ما يعزوه المؤرخون لمثل من هذا وصفه فقال « وشادي هذا ليس إلا اسماً ، فلا يعرف له تاريخ ولا تذكر له أوصاف سوى أنه كان صديقاً خاصاً وصاحباً أميناً لبهروز الأغر يقى الذي كان عبداً في دوين وارتفع حتى وصل إلى مركز سام في حكومة الترك ، حتى أصبح معلماً ومربياً خصوصياً لأولاد السلاجقة » وهذا بعد أن فر من دوين بسبب خصي لحقه ، واتصل بدولة مسعود بن ملكشاه وتعلق بخدمة مربى بنيه . حتى إذا هلك ذلك المربي أقامه السلطان مقامه فظهرت كفاءته وعلا في الدولة محله ، فأرسل إلى شادي بن مروان لما بينها من الألفة وأكيد الصحبة ، فقدم عليه ومكث عنده زمناً ، فلما تولى بهروز من قبل السلطان شحنة (محافظة) بغداد سار إليها مستصحباً شادي وبنيه ، ولما أقطعه السلطان قلعة تكريت ولى عليها شادي نائباً عنه فيها ، فهلك وهو وال عليها ، فولى بهروز مكانه ابنه نجم الدين أيوب وهو أكبر من أخيه أشد الدين شيركوه بن شادي كما يرويه ابن خلكان ، وشادي هذا قبة على قبره هناك

فلو كان لشادي ملك في دوين وساطان بها لما رحل عنها إلى بغداد ثم إلى تكريت ليكون محافظاً عليها ، ولفضل الأقامة في بلده بين أهله وذويه ، يأمر فيطاع ، ويعتز بعصبية فتعزه ، وليستنصر بها فتنصره

والذى يستطيع المرء إدراكه أن شادى هذا كان رئيس قومه في قرية أجدنقان فقط (قرية على باب دوين) وليس أميراً في دوين؛ وعلى أى حال فلا يمكن أن يكون هذا البيت بيت ملك وسلطان قديم باجماع المؤرخين على عدم معرفة جد لهذه الأسرة فوق مروان جاء في دائرة معارف البستانى تحت كلمة (أيويون) ما نصه «عائلة كردية ملكت مصر والشام وعرفت بالدولة الأيوبية أو دولة بنى أيوب وهذه العائلة من أشرف الأكراد من قبيلة منهم تعرف بالروادية من بطون الهذيانية إحدى قبائل العجم» فكأنه بذلك يريد أن ينسب القوم إلى العجم لا إلى غيرهم، ثم يقول «ينتسبون إلى نجم الدين الملك الأفضل أيوب بن شادى بن مروان الكردي؛ نشأ نجم الدين هذا وأخوه أسد الدين شيركوه ابني شادى ببلدة دوين من أرض أذربيجان من جهة أران وبلاد الكرج ودخلا بغداد وخدموا مجاهد الدين بهروز شحنة بغداد» وفي هذه العبارة ما يدل على عدم ذهاب شادى إلى بغداد واستعماله على تكريت كما تقدمت الإشارة إليه، والظاهر أن شادى خدم فعلاً في تكريت لاسيما إذا استندنا إلى ما كان بينه وبين مجاهد الدين بهروز من الرابطة والألفة السابقة من جهة، ومن جهة أخرى وجود قبر له في تكريت ذى قبة عالية تدل على ما كان له من المسكنة والمنزلة بين أهل تكريت مع كونه غريباً عنهم